المحاضرة السادسة:

نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية ومراحل تطورها:

لم تظهر الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع مستقل عن الأنثروبولوجيا العامة، إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وربما يعود الفضل في ذلك إلى العالم الإنكليزي/ إدوارد تايلور/ الذي يعد من رواد الأنثروبولوجيا، والذي قدم أول تعريف شامل للثقافة عام 1871 في كتابه "الثقافة البدائية". وقد مرت الأنثروبولوجيا الثقافية بمراحل متعددة، منذ ذلك الحين حتى وصلت إلى ما هي عليه في العصر الحاضر (Barnouw , 1972 , p. 7)

المرحلة البدية: وتمتد من ظهور هذه الأنثروبولوجيا وحتى نهاية القرن التاسع عشر وكانت عبارة عن محاولات لرسم صورة عامة لتطور الثقافة منذ القدم، والبحث أيضا عن نشأة المجتمع الإنساني.

وظهر في هذه الفترة الى جانب العالم الإنكليزي /تايلور/، العالم الأمريكي/ بواز / الذي أخذ بالاتجاه التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية، وذلك من جانبين:

أولهما: إجراء دراسات تفصيلية لثقافات مجموعات صغيرة، كالقبائل والعشائر، ومراحل تطورها.

وثانيهما: إجراء مقارنة بين تاريخ التطور الثقافي، عن مجموعة من القبائل، بغية الوصول إلى قوانين عامة أو مبادئ، تحكم نمو الثقافات الإنسانية وتطورها وهذا ما يعطي أهمية للأنثروبولوجيا باعتبارها علما له منهجيته الخاصة.

المرحلة الثانية: وتقع ما بين (1900 – 1915 م)، وتعدّ المرحلة التكوينية، حيث تركزت الجهود في الأبحاث والدراسات، على مجتمعات صغيرة محدّدة المعرفة تاريخ ثقاتها ومراحل تطورها، وبالتالي تحديد عناصر هذه الثقافة قبل أن تنقرض.

استناداً إلى ذلك، جرت دراسات عديدة على ثقافة الهنود الحمر في أمريكا، وتوصل الباحث الأمريكي أرسلر/إلى أسلوب يمكن بواسطته من دراسة أي إقليم أو منطقة في العالم تعيش فيها مجتمعات ذات ثقافات متشابهة، أو ما اصطلح على تسميته بـ (المنطقة الثقافية) وقد شبه /وسلر/ المنطقة الثقافية بدائرة، تتركز معظم العناصر الثقافية في مركزها، وتقل هذه العناصر كلما ابتعدت عن المركز.

المرحلة الثالثة: وتقع ما بين (1915– 1930 م) وتعد فترة الازدهار، حيث تميزت بكثرة البحوث والمناقشات في القضايا التي تدخل في صلب علم الأنثربولوجيا الثقافية، ولا سيما تلك الدراسات التي تركزت في أمريكا.

ويرجع ازدهار الأنثربولوجيا في تلك الفترة، إلى نضج هذا العلم ووضوح مفاهيمه ومناهجه. وترافق ذلك بازدهار المدرسة التاريخية في أمريكا، وظهور المدرسة الانتشارية في إنكلترا، ولا سيما بعد الأخذ بمفهوم (المنطقة الثقافية) الذي طرحه /وسلر/ كإطار لتحليل المعطيات الثقافية وتفسيرها، والتوصل إلى العناصر المشتركة بين الثقافات المتشابهة.

المرحلة الرابعة: ومدتها عشر سنوات فقط، وتقع ما بين (1930 – 1940م). وعلى الرغم من قصر مدتها، فقد أطلق عليها الفترة التوسعية، حيث تميزت باعتراف الجامعات الأمريكية والأوروبية بالأنثروبولوجيا الثقافية كعلم خاص في إطار الأنثروبولوجية العامة، وخصصت لها فروع ومقررات دراسية في أقسام علم الاجتماع في الجامعات.

وظهرت في هذه الفترة النظرية (التكاملية) التي تبناها /سابير/ عالم الاجتماع الأمريكي، واستطاع من خلالها تحديد مجموعة متناسقة من أنماط السلوك الإنساني، والتي يمكن اعتمادها في دراسة السلوك الفردي، لدى أفراد مجتمع معين، حيث أن جوهر الثقافة هو في حقيقة الأمر ليس إلا تفاعل الأفراد في المجتمع بعضهم مع بعض، وما ينجم عن هذا التفاعل من علاقات ومشاعر وطرائق حياتية مشتركة.

وقد تأثرت الأنثروبولوجيا في هذه الفترة –إلى حد بعيد– بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولا سيما في مفاهيمها ومناهجها، وذلك بفضل الأبحاث التي قام بها كل من/ مالينوفسكى وبراون/ في مجالات الأنثربولوجيا الاجتماعية.

المرحلة الخامسة: وهي الفترة المعاصرة التي بدأت منذ عام 1940، وما زالت حتى الوقت الحاضر. وتمتاز هذه المرحلة بتوسع نطاق الدراسات الأنثروبولوجية، خارج أوروبا وأمريكا، وانتشار الأنثروبولوجيا الثقافية في العديد من جامعات الدول النامية، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وترافق ذلك مع ظهور اتجاهات جديدة في الدراسات الأنثربولوجية، كان الاتجاه القومي في مقدمة هذه الاتجاهات الحديثة في الأنثروبولوجيا الثقافية، والذي يهدف إلى تحديد الخصائص الرئيسة للثقافة القومية وقد أخذت بهذا الاتجاه الباحثة الأمريكية /روث بيندكيت/التي قامت بدراسة الثقافة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية.

ويسمى الاتجاه القومي في تقييم الثقافة: "الانطوائية القومية" والتي تعني: أن الإنسان يفضل طريقة قومه في الحياة، على طرائق الأقوام الأخرى جميعها. تلك هي النتيجة المنطقية لعملية التثقيف الأولى، والتي يتفق بها شعور معظم الأفراد نحو ثقافتهم الخاصة، سواء أفصحوا عن هذا الشعور أو لم يفصحوا.

وتجلى الانطوائية القومية لدى الشعوب البدائية بأحسن أشكالها، في الأساطير والقصص الشعبية، والأمثلة والعادات اللغوية فأسطورة أصل العروق البشرية لدي هنود (الشيروكي) تعطينا مثالاً حياً عن الانطوائية القومية. تقول الأسطورة:

"صور الخالق الإنسان بأن صنع أولاً فرناً وأوقد النار فيه، ثم صنع من عجينة ثلاثة تماثيل على شكل الإنسان، ووضعها في الفرن وانتظر شيّها (شواءها)، غير أن لهفة الخالق إلى رؤية نتيجة عمله الذي يتوج تجربته في الخلق، كانت من الشدّة بحيث أخرج التمثال الأول مبكراً، فكان – وللأسف– غير ناضج شاحباً باهت اللون، ومن نسله كان العرق الأبيض. أما التمثال الثاني، فكان ناضجاً جيداً لأن مدّته في الشواء كانت مضبوطة وكافية، فأعجبه شكله الأسمر الجميل، وكان هذا سلف الهنود. وانصرف الخالق إلى تأمل صورته، ناسياً أن يسحب التمثال الثالث من الفرن حتى اشتم رائحة الاحتراق فتح باب الفرن فجأة، فوجد هذا التمثال متفحماً أسود اللون.. فكان ذلك مدعاة للأسف، ولكن لم يعد بالإمكان حيلة، وكان هذا أول رجل اسود." (هرسكوفيتز، 1974، ص 72)

بهذه الصورة تبدو الانطوائية القومية لدى الكثير من الشعوب .. حيث يحصر الإنسان/ الفرد على التعبير عن صلات قومه الحميدة.. ولهذا يحكم أي إنسان على النظام القيمي/ الاجتماعي لدي أي شعب أخر، من خلال العلاقة التي تربط هذا الشعب بشعبه، وفق درجة الرغبة والقبول في ذلك، والتي قد تصل إلى حدود الرفض المطلق أو القبول المطلق، وفقاً لمعايير عامة.

وكانت من أهم الاتجاهات الحديثة أيضاً في الأنثروبولوجيا الثقافية، تلك الدراسات التي عنيت بالمجتمعات المتمدنة، وما أطلق عليها "دراسة الحالة".

كدراسة أوضاع قرية أو عدد من القرى المجاورة ، أو في منطقة معينة أو دراسة ثقاقة خاصة بمجموعة أو بفئة من البشر. إضافة إلى دراسات أكاديمية تتعلق بخصائص الأنثروبولوجيا الثقافية ومبادئها، ومناهج البحث فيها وطرائقها وأساليبها.. وغيرها مما يسهم في إجراء الدراسات على أسس موضوعية او علمية تحقق الأهداف المرجوة منها.